مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 16 العدد 02 بتاريخ 2020/06/15
ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الطّقوس الدّينية الإفريقية في رواية "كامارادْ رفيق الحيف والضّياع"
– قراءة لسانية أنثروبولوجية–

"AfricanReligiousRituals in "Kamarad Rafiq Al-Haif and Lost
- Cultural anthropologicalreading-

ط/ عبد الرحيم بوشاقور[1]، د/ حبيب بوسغادي[2]
[1]E/ Abderrahim BOUCHAKOUR,[2]D/ Habib BOUSGHADI
[1]مخبر الخطاب التّواصلي الجزائري الحديث جامعة عين تموشنت
[1]ThedetectiveofthemodernAlgeriancommunicativediscourse

تاريخ الارسال: 2020/03/06 تاريخ القبول: 2020/04/14

ملخص:

تحاول هذه الدراسة البحث عن مميزات الجانب الديني للمجتمع الإفريقي والطقوس المتعلقة به وذلك في مدونة روائية عنوانها "كاماراد رفيق الحيف والضياع للصديق حاج أحمد ، وبالاعتماد على القراءة اللسانية الأنتروبولوجية التي تهدف إلى تفكيك رموز الرواية أوّلا ثم محاولة استنطاق بعدها الأنتروبولوجي والديني، وقد خلصت الدراسة إلى رصد مجموعة من المعتقدات والعادات المرتبطة بالممارسات الدينية في الجانب العقدي والعملي تجلى منها مايلي: التبرك بالصلاة على النبي،تقديس الأساطير والمرويات الغرائبية، استعمال التمائم والحروز،التعدد الإثني،تقديس قاعدة الاجتماع حول الطعام والشراب بوصف هذه الممارسات تمثلات للهوية الجمعية للأفارقة.

كلمات مفتاحية: أنثروبولوجيا، دين، طقوس، رواية، كامارادْ.

Abstract:

This study tries to search for the characteristics of the religiousside of the African society and the ritualsrelated to it, in a novel blog entitled "Camarad, the Companion to the Injustice and Loss of the Friend Hadj Ahmed, and by relying on an anthropologicallinguisticreadingthataims to break up the symbols of the novel first, then an attempt to investigate the anthropological and religious dimension. The studyconcluded To monitor a

[1]المؤلف المرسل: عبد الرحيم بوشاقور، bouchakour.boukiou@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

set of beliefs and customs related to religious practices on the doctrinal and practicalside, including the following: Blessing withprayersupon the Prophet, reverence for myths and Goliath narratives, use of harmonization and heresy, ethnicdiversity, reverence for the rule of A meeting on food and drink describingthese practices as representative of the collective identity of Africans
Keywords: Anthropology, religion, rituals, novel, camarad**.**

مقدمة:

أضحت الرّواية في وقتنا الرّاهن خطاباً مُهيمناً على السّاحة الأدبية من حيث الإنتاج والتّلقّي، فقد حجزت لنفسها مكاناً بين مختلف الأجناس الأدبية؛ إنّ هذا النّزوع من قبل الكتّاب للكتابة في الرّواية مردّه ومرجعه بالدّرجة الأولى لكثرة الجوائز المقدّمة لهذا الفنّ كجائزة "كتارا" وجائزة "بوكر" وغيرها، بالإضافة إلى أنّ الرّواية فضاؤها واسعٌ، إذ يجد الرّوائيون مساحة كبيرة من الحرّية في الكتابة والتّعبير عمّا يختلج في مخيّلتهم بحكم أنّهم يعيشون الواقع ويسعون في تشخيص انشغالاته ونقل آلامه وآماله؛ إزّاء هذا التّراكم المتّسم بالكثافة تعدّدت المقاربات والقراءات التي تناولت الخطاب الرّوائي من مختلف الجوانب والزّوايا، فهناك مقاربات تُعنى بالجانب التّركيبي، وأخرى تُعنى بالجانب الدّلالي وغيرها يعني بالجانب التّداولي، إلّا أنّ هذه الورقة البحثية تُحاول رصد الطّقوس والعادات الدّينية الإفريقية في رواية "كامارادْ" بالاعتماد على القراءة اللّسانية الأنثروبولوجية التي تؤكّد على ضرورة الجمع بين ما هو لغوي وأنثروبولوجي في النّص الأدبي؛ وفقاً لذلك فاستشكال هذا العمل يأتي على النّحو الآتي:

- ما البُعد الأنثروبولوجي الذي تحمله رواية "كامارادْ"؟
- ما هي الطّقوس والعادات الدّينية الإفريقية المتجلّية فيها؟

أولا: التّحليل الأنثروبولوجي لرواية "كامارادْ":

ترجع أصول الأنثروبولوجيا إلى اللّغة الإنجليزية، وهي «كلمة مشتقّة من الأصل اليوناني المكوّن من مقطعين: أنثروبوسAnthropos، ومعناه "الإنسان" ولوجوس Locos ومعناه "علم" وبذلك يُصبح معنى الأنثروبولوجيا من حيث اللّفظ "علم الإنسان" أي العلم الذي يدرس الإنسانمن حيث هو كائن عضوي حيّ يعيش في مجتمع تسوده نُظُم وأنساق اجتماعية في ظلّ ثقافة معيّنة ويقوم بأعمال مُتعدّدة ويسلكسلوكا محدّداً» (عيسى الشماس، 2004، ص 13)، فالأنثروبولوجيا حسب هذا التّعريف: هي الدّراسة الشّاملة

للإنسان وتطوّره وأوجه التّشابه والاختلاف بين البشرفي كلّ زمان ومكان من النّواحي الجسمية والاجتماعية والثّقافية، وربط الأنثروبولوجيا بالنّتاج الأدبي هو من المحطّات المهمّة والبارزة في سيرورتها التّاريخية أين نستحضر في هذا الجانب الإضافات التي قدّمها "لوسيان غولدمان" (Lucien Goldman) ومفهوم البنيوية التّكوينية Structuralisme génetique التي عُدّت «مُنعطفا حقيقياً في سوسيولوجيا الأدب» (لوسيان غولدمان، 1993، ص 233) ومد جسور العلاقات بين النّتاج الأدبي والمجموعات الاجتماعية، حين درس المفكّر الفرنسي أعمال أدباء كـ "بليز باسكال" Blaise Pascalو"راسين" Jean Racine و"ألان روب جرييه" Alain Rbbe Grillet، واستخلص أنّ التّحليل السّوسيولوجي والأنثروبولوجي هو أحد العناصر الأكثر أهمّية في تحليل العمل الفنّي.

تتجلّى علاقة الأنثروبولوجيا بالأدب بصورة واضحة في الخطاب الرّوائي المعاصر فقد تخطّت الرّواية الجزائرية المعاصرة على غرار الرّوايات في العالم حاجز الأيديولوجية وصارت تنطلق من الحيرة والشّك «فلم تعد حبيسة النّظرة الأيديولوجية التي طبعتها لسنوات عديدة خاصّة في فترة السّبعينيات» (عبد الحميد هيبة، 2013، ص 224)، وأصبحت تُركّز على قضايا وثيمات معاصرة كالعنف والمنفى والهجرة، وخرجت بذلك من الوثوقية واليقين السّمات البارزة لها في مرحلتها التّأسيسية، ورواية "كامارادْ" للصّديق حاج أحمد من الرّوايات التي عالجت موضوعاًراهناً وهو هجرة الأفارقة نحو الفردوس الأوروبي مشخّصة الأسباب وباحثة عن الحلول، وتفكيك الرّواية أنثروبولوجياً يكشف لنا حضور التّركيب التّنضيدي ومفهوم المركزية والإثنية كما أسّس لها "كلود ليفي ستراوس" Cloud Lévi-Strawss، وقد وظّف "الصديق حاج أحمد" شخصيات رواية "كامارادْ" وموقعها وفق طبقتين:

- شخصية "مامادو" ورفاقه ⟵ تُمثّل الطّبقة الإفريقية المنحطّة البائسة.
- جاك بلوز ⟵ يُمثّل الطّبقة الأوروبية البورجوازية.

إذا حاولنا دراسة هذه الشّخصيات أنثروبولوجياً كما وردت في الرّواية بالتّنويه على الملامح الجسميّة والاجتماعية والثّقافية تبيّن لنا ما يلي:

1- الملامح الجسمية:

صوّر لنا "الصّديق حاج أحمد" شّخصيات رواية كامارادبمرفولوجيتها الدّقيقة وحسب انتمائها لكلّ طبقة، فقد ذكر شخصية "مامادو" بقوله: «الكامارادي مامادو يهزّ رأسه، بياض عينيه مع أضواء فمه،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

تصنع حفلة مونقة بوجهه» (الصديق حاج أحمد، 2015، ص 31)، أمّا "إدريسو" رفيق "مامادو" فقد ذكره "الزّيواني" بقوله: «الرّفيق المذكور عشريني بشرته سوداء فاحمة، هو أطولنا قامة، أنفه أفطس، شعره قططٌ، شواربه ممتلئة، بنيته قويّة، عروق أوردة ذراعيه ترسم مشاهد متعرّجة» (الصديق حاج أحمد، 2015، ص 37)، أمّا "عسمانو"، فقد وصفه بقوله: «يميل إلى الطّول، مفلّج الأسنان» (الصديق حاج أحمد، 2015، ص 41)،أمّا "غاريكو" فوصفه بـ: «ضعيف البنية يُثير الشّفقة» (الصديق حاج أحمد، 2015، ص 41)،أمّا الزّميل "ساكو" فهو «عريض الجبهة، مقاس مَهْوِي قرطه شبر» (الصديق حاج أحمد، 2015، ص 41)، فالقاسم المشترك بين كلّ هذه النّماذج هو اللّون الأسود الذي يطبع شخصيتها ويوحي بالبؤس والشّقاء؛ إنّ حضور هذه الصّبغة البيولوجية في ملامح الرّجل الإفريقي الزّنجي اتّخذته الدّول الأوروبية كذريعة لممارسة الإقصاء والعنصرية اتّجاه ذوي البشرة السّمراء، والوقائع التّاريخية شاهدة على ذلك، فالمستعمر الفرنسي «في أوّل أيّام احتلاله لمالي قام بالتّرويج للعداوة النّامية بين السّود والبيض ممّا أدّى إلى قتل الأفارقة للطّوارق وفُرّق الجيش المالي المختلط وأصبح العربي والطّوارقي مُهدّداً في مناطق قبائل أو أقاليم أخرى بالذّبح بسبب لونه» (مجموعة أبحاث، 2014، ص 44).

أمّا حضور شخصية "جاك بلوز" في الرّواية فهي نموذج عن الطّبقة البورجوازية المستعلية، والدّليل على ذلك الملامح الجسمانية التي أعطاها "الصّديق حاج أحمد" إيّاه في الرّواية، فقد ذكره بقوله: «رجل ستّيني أشقر مشرب بحمرة كتلك الحمرة التي تطفح وجوه أغلب السّلالة الكارولنجيةالباريسيّة» (الصديق حاج أحمد، 2015، ص 11)، هذا التّباين في اللّون بين الرّجل الإفريقي الأسود والرّجل الأوروبي الأبيض جعل من هذا الأخير يرى في بياض بشرته أفضلية واستعلاءً على غيره، وأنّ هؤلاء الأفارقة الزّنوج ما هم إلّا عبيد وخُدّامٌ لأسيادهم الأوروبيين، وقد بلغت هذه النّظرة الإقصائية ذروتها من العنصرية إلى حدّ أن يوصف الرّجل الإفريقي بالوحشية والبهائمية، والدّليل على ذلك المقالة الشّهيرة "لكاثرين جورج" بعنوان "الغرب المتمدّن ينظر إلى إفريقيا، حيث ورد فيها: «إفريقيا حيث الرّجال المتوحّشون والنّساء المتوحّشات لأكثرهم لون أسود وأنوف مُفلطحة وشعر يُشبه الصّوف، أمّا طبيعتهم فمتوحّشة تمام التّوحّش وتُشبه صبغة الحيوانات الضّارية» (أشرف صالح محمد، 2014، ص 73).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

2- الملامح الاجتماعية:

هو ثاني مستوى تهتمّ بدراسته الأنثروبولوجيا، وقد رصدنا من خلال قراءتنا لرواية "كامارادْ" واقعين مختلفين متضادّين أبدعت أنامل "الزّيواني" في تشخيصهما ورسم معالمهما؛ أمّا بالنّسبة للواقع الأوّل فيُمثّله "مامادو" ورفاقه نموذج لحياة البؤس والشّقاء والعيشة المزرية، يؤكّد ذلك "مامادو" أثناء سرده لأسباب هجرته فيقول: «أكاد أجزم سعادة ضيف نيامي –مخرج فيلم كامارادْ– أنّ منظر القمامة والهواء الملوّث وحدهما القاسم المشترك بين فقراء عاصمتنا (نيامي) وأغنيائها، بيد أنّ هؤلاء الأثرياء –سامحهم الله– لو استطاعوا طمس الوصل بيننا وبينهم لفعلوا ... أنا واثق من ذلك» (الصديق حاج أحمد، 2015، ص 35)، ويُضيف قائلاً: «في حيّنا القصديري (Gمْكَلِي) الواقع على الضّفّة الشّرقية الضّاجة من نهر النّيجر لا توجد لنا نوادٍ أو مقاهٍ شبابية نختلف إليها، لدغدغة أحلامنا وعَدِّ جغرافية بؤسنا على خارطة هذه الحياة المليئة بالمفارقات؛ بل حتّى مطاعمنا في هذه العاصمة العظيمة تجدها على قارعة الطّرق وأرصفة المباني الحكومية والوزارات تطبخ للجوعى بالحطب ويجلس زبائنها الكرام على مجسّمات الأحجار المكعّبة وجذوع الأشجار الأسطوانية بدل الكراسي!!» (الصديق حاج أحمد، 2015، ص 36).

في المقابل هناك واقع آخر حاضر في الرّواية يُمثّله المخرج الفرنسي "جاك بلوز" مثال عن حياة الرّفاهية والبورجوازية التي يعيشها المجتمع الأوروبي، ويحنّ لها المجتمع الإفريقي، ويتّضح ذلك من خلال الأحكام التي كان يصدرها في أوّل زيارة له لنيامي يحدّث بها نفسه في كلّ مرّة ومن نماذج ذلك قوله: «مطار عاصمة دولة مساحتها تكاد تكون ركناً صغيراً بمطارات الرّيف الفرنسي قال في نفسه» (الصديق حاج أحمد، 2015، ص 19)، ضف إلى ذلك انتقاده لقاعة الدّخول إلى المطار، حيث قال عنها: «صالة صغيرة أيضاً بقدر زاوية من قاعات مطاراتنا، تكلّم مع نفسه مرّة ثانية» (الصديق حاج أحمد، 2015، ص 19)، فهو يعقد مُقارنة بين ما هو موجود في أوروبا وما رآه في إفريقيا، حيث تحمل هذه المقارنة في مضمراتها نسق السّخرية من الوضع في إفريقيا، وكأنّ هذا المخرج الفرنسي بقدومه حمل معه أنوار الشّمس لإفريقيا، ومن جانب آخر تبلغ طبيعة العلاقة بين "مامادو" ورفاقه من جهة ،والمخرج الفرنسي "جاك بلوز" من جهة أخرى نسقها الأعلى من الاحترام والتّبجيل المفرط لهذا الرّجل الأبيض من قبل الأسود وهو ما بدا جليّاً من خلال تردّد متلازمات في أغلب صفحات الرّواية كلّها تدور في فلك التّقديس كعبارات: «أجل من باطرون، قلت لك سيّدي، سيّدي الضّيف اللّطيف، سيّدي صاحب الدّاكتيفون» (الصديق حاج أحمد، 2015، ص26،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

92، 115، 280)، وكأنّ الرّواية تُحيي العلاقة الكولونيالية من جديد التي تؤكّد على التّمييز العنصري بين الأجناس (المستعلي –المستعلَى عليه).

3- الملامح الثّقافية:

تمثّلث في التّصاعد والتّنازل الطّبقي، حيثوجّه "الصّديق حاج أحمد" مقاصد الطّبقة المستعلية والتي يُمثّلها "جاك بلوز" والطّبقة المتدنّية التي يُمثّلها "مامادو" ورفاقه توجيهاً فريداً من نوعه ينمّعن محاولة الرّوائي الجادّة للبحث عن حلّ عقلاني يُشابه إلى حدّ بعيد الحل الذي اقترحه المفكّر الأنثروبولوجي "كلود ليفي ستراوس" Cloud Lévi-Strawssفي كتابه "العرق والتّاريخ" وكيفية «الحفاظ على الفوارق وفهمها ودمجها في نظام إجمالي» (كلود ليفي ستراوس، د. ن، ص 91) وذلك عن طريق التّعاون والحوار الثّقافي، ومن ثمّ فقد وضع الصّديق حاج أحمد مفارقة عجيبة أفصح عنها في إحدى المقابلات التي أجريت معه إذ يقول: «حتّى إنّ القارئ عندما يأتي إلى نهاية النّص في الفصل الأخير "الفردوس المنتظر في الجنوب" يبدأ النّص منطقياً على أنّ الخلاصفي الشّمال لكن في نهاية النّص سوف يجد القارئعلى أنّ هذا الإفريقي الذي رأى الخلاص في الشّمال يجده في الجنوب» (كاديك، 2017) وذلك من خلال الاقتراح الذي ختم به الرّواية بقوله: «بعد عام من عمل مامادو مع فرقته التّقنية – عسمانو وغاريكو- في إنجاز فيلم وثائقي حول الفقر بـ (نيامي) عاصمة النّيجر، أطلق هذا الأخير على فيلمه اسم (الوجه الآخر للحياة خلف الصّحراء الكبرى) وبتاريخ الأحد 12-01-2014 في تلك الليلة الباريسية الباردة الماطرة، نشر المخرج الفرنسي (جاك بلوز) على شبكة التّواصل الاجتماعي، بصفحته الفايسبوكية والتوترية منشوراً يُشيد فيه بتجربة كاماراد (مامادو) وفيلمه الوثائقي المذكور» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 361).

أمّا هذا المخرج الفرنسي "جاك بلوز" الذي كان يرى في نفسه أفضلية على غيره وأنّ المجتمع يتكوّن من طبقات (طبقة السّادة وهم الأوروبيون وطبقة العبيد وهم الأفارقة الزّنوج)، فبعد الخيبة التي مُني بها في نيل السّعفة الذّهبية لعام 2012 والتي فاز بها «المخرج النّمساوي ميشائيلهانكيه عن طريق فيلمه (حب)»(الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 14)، أوّل ما فكّر فيه الثّأر لنفسه بفيلم فريدمن نوعه يُشارك به في الدّورات القادمة للمهرجان «غير أنّ موضوع الهجرة السّرية للأفارقة وما شاهده من تراجيديا لهؤلاء البسطاء عبر الأفلام الوثائقية كانت تُغازله دائماً لإخراج فيلم سينيمائي يُحاكي فيه هذه المأساة الكونية» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 15)، فإذا كان "مامادو" يرى خلاصه في الشّمال فإنّ هناك وجهاً

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

آخر يرى خلاصه في الجنوب تمثّل في المخرج الفرنسي "جاك بلوز" وبالتّالي فلابدّ على هذا المخرج الفرنسي أن يخلع رداء التّعالي والترّفع وأن يقصد هذا الجنوب البائس حتّى يقف بنفسه على الواقع ويُعاين الزّوايا التي يُؤثّث بها نصّه؛ وبالتّالي فإنّ خلاص من في الشّمال هو في الجنوب.

نجد توجيهاً آخر "للصّديق حاج أحمد" يُمكن رصده من خلال الرّواية في علاقة طبقة الشّمال بطبقة الجنوب ومُقترحات بعثها من جديد من حيث إنّ الرّواية نقلت للقارئ تفريط الشّمال (الدّول الأوروبية، والجوار الإفريقي والجزائر تونس والمغرب الأقصى) في إفريقيا الزّنجية بطريقة ضمنية نُلخّصها في النّقاط التّالية:

مقصد المخرج الفرنسي "جاك بلوز" من رحلته إلى النّيجر، حيث أنّ الغرض من رحلته لم يكن لتشخيص الوضع المزري في إفريقيا ونقله للعالم حتّى يُحرّك هذا الأخير ساكناً من الوضع، وإنّما كان الهدف شخصياً تمثّل في البحث عن المجد السينمائي الذي ينفلت منه كلّ عام، والدّليل على ذلكأنّ "جاك بلوز" لم يُحرّك ساكناً واكتفى كما تذكر الرّواية بأن «أخرج مُسجّله الصّوتي الصّغير (ديكتافون) ومفكّرته الفاخرة، وضعهما على الطّاولة، استلّ قلماً مُذهّباً من جيب قميصه السّماوي وقالللكمارادي الحرّاق (أحك يا مامادو) فطفق مامادو يسرد حكايته» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 32)، وكأنّ بالرّجل الفرنسي يريد مصلحته، ولا يأبه للعالم الذي يُعاني منه مامادو ورفاقه وبالتّالي فإنّ جاك بلوز عيّنة من هذا الإهمال الذي يُعاني منه الإفريقي من قبل الأوروبي.

غفلة دول الجوار عن إفريقيا، تمثّلث هذه الغفلة في فقداننا لخطوات واضحة وصريحة من قبل دول شمال المغرب العربي لاحتواء هذا الوضع القاسي الذي يُعاني منه الأفارقة، ومن جانب آخر نلحظ غياب نصوص أدبية تناولت هذا الجوار الإفريقي، فإذا ما أردنا أن نقرأ عن إفريقيا الزّنجيّة فإنّنا سنعتمد لا محالة على ما كتبه الغرب عنّا، وبالتّالي فإنّ ما يُميّز رواية "كامارادْ" أنّها تُعتبر فتحاً جديداً للرّواية العربية على إفريقيا وثقافتها؛ كما أنّ الرّواية وفي المقابل تدين بشكل ما انغلاق طبقة الجنوبعلى نفسها وعدم انفتاحها على التّطوّر الذي يحدث في الشّمال، وبالتّالي فإنّ هذا التّقاعس من قبل الحكّام الأفارقة في وضع خطط وسياسات تنموية واضحة المعالم أدّى إلى أن يفقد النّاس حقوقهم الأساسية في أبسط الخدمات التي ينبغي أن توفّرها الدّولة من صحّة وتعليم وطرق ووسائل مواصلات، ومن ثمّ تتحوّل الحياة في إفريقيا إلى ضرب من ضروب المعاناة الدّائمة.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ثانياً: المعتقدات والطّقوس الدّينية في رواية "كامارادْ":

ورد في الرّواية الإشارة إلى مجموعة من الطّقوس والسّلوكات التي لها بعد أنثروبولوجي ديني، بذل الكاتب جهداً استثنائياً في التّنقيب عنها ليُقدّمها للقارئ في صورة ذات أهمّية متقدّمة، وقد سُئل "الصّديق حاج أحمد" عن مُبرّرات توظيف هذه الطّقوس والعادات في الرّواية فأجاب قائلاً: «المجتمع الإفريقي الزّنجي مجتمع طقوسي أسطوري عجائبي بامتياز ولذلك فمن غير المعقول أن تكتب رواية عن إفريقيا خالية من سببية التّمائم والأسطرة أو الرّقص مثلاً لأنّها مرتبطة بذهنية الإفريقي»(احمد، 2016)، وفيما يلي نماذج لحضور هذه المعتقدات والطّقوس الدّينية في الرّواية:

1- الشّعوب الإفريقية وممارسة شعيرة الصّلاة:

إذا تحدّثنا عن شعيرة الصّلاة من النّاحية الأنثروبولوجية فلا يُمكننا هاهنا أن نتجاوز إسهامات عالم الاجتماع الفرنسي "مارسيل موس" Marcel Mouss واهتمامه بمسألة المقدّس وعلاقته بالنّظام الاجتماعي خاصّة في كتابه "سوسيولوجيا الصّلاة"، حيث اعتبرها «الشّكل الدّيني الأوّل من بين الظّواهر الدّينية القليلة التي تُعطي انطباعاً عن الحياة» (عبد الهادي الحلحولي، 2016، ص 55)، ففي تحليله وتفكيكه لبنية الصّلاة يرى "موس" Mouss أنّها تتكوّن من شيئين أساسيين «تتكوّن من الطّقوس ومن نمط الاعتقاد، فباعتبارها طقساً فيُفسّرها موس على أنّها سلوك وفعل أنجز ووجّه إلى أشياء مقدّسة وباعتبارها عقيدة Credoفيُعبّر الأفراد من خلال قيامهم بفعل الصّلاة عن أفكار ومشاعر دينية وبالتّالي ففعلا التّصرّف والتّفكير مرتبطان غير منفصلان» (عبد الهادي الحلحولي، 2016، ص 55، 56)، وبالرّجوع إلى رواية "كامارادْ" فقد بيّن "الصّديق حاج أحمد" تباين الدّول الإفريقية في ممارسة شعيرة الصّلاة، ففي حديثه عن "مامادو" و"إدريسو" اللّذان ينتميان إلى النّيجر فقد صوّرهما الرّوائي بقوله:«في صباح اليوم الموالي نهضنا على همهمة الرّفاق، الشّمس لازالت تنشر أشعّتها في الأفق البعيد عروق الرّمال تُشكّل التّضاريس المكانية، من كان ساهياً وتذكّر الصّلاة من أمّتنا تيمّم وصلّى» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 145)، وقوله أيضاً: «غير بعيد عنهم رفاق نيجيريون البعض منهم ملتزم بالصّلاة يحملون في أيديهم مسبّحات يخرجون بها حتّى للعمل تقواهم وخشيتهم لله» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 268)، ضف إلى ذلك إقرار "كايطا" واعترافه "لمامادو" في معرض إجابته عن سؤال هذا الأخير بخصوص غياب مواطنوا النّيجر عن قائمة المناصب والتّشريحات لقيادة المعسكرات الكاماراديّة، إذ يُوضّح ذلك قائلاً: «أنتم النّيجيريون،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

مُحافظون غير متحرّرين» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 270)، أمّا الشّعوب الأخرى من الكاميرون وساحل العاج ... إلخ فقد وصفها الرّوائي بالتمرّد، يُوضّح ذلك "الصّديق حاج أحمد" في روايته قائلاً: «الجنس الكامارادي يستعرض سحره عبر الطّرق المتاحة (الإيVوارية) الجميلة التي طبعت لي إبتسامة عميقة بابها مُغلق لا شكّ أنّها الآن ترفع ساقيها» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 268).

2- خاصّية التّبرّك بالصّلاة على النّبي:

عُدّت من السّلوكات الثّقافية التي لها خلفية دينية وكان لها حضورٌ قويٌّ في الرّواية وتعني «الثّناء على الرّسول وسؤال الله تعالى أن يُعلي ذكره وأن يزيده تعظيماً وتشريفاً» (يوسف، أبو عزيز، دون سنة، ص95)، وقد تردّدت الصّلاة على النّبي بعباراتها المختلفة في مواضع كثيرة من الرّواية نذكرمن ذلك الحوار الذي دار بين عمّ "مامادو" "بامبا" والمشتري أثناء بيع البقرة "بكتو"«أعطيك 170000 فرنك والصّلاة على النّبي، قال له في كلام قاطع لا ردّة بعده وهو يبسط يد المصافحة لعقدة البيعة مع عمّي بامبا: 175000 فرنك سفا وبالنبي صلّينا» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 85)، وبالتّالي فقد شاع بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ذكرهم للنّبي وصلاتهم عليه، سواء في مجالسهم العادية أو في معاملاتهم التّجارية، إلاّ إنّ هذه الخاصّية تنتشر بشكل كبير في المناطق الصّحراوية وإفريقيا ما وراء الصّحراء خاصّة دولتيْ "النّيجر" و"مالي".

3- باب الطّعام والشّراب:

هو باب واسع في الدّين تكلّم عنه الفقهاء في الثّقافة الإسلامية قديماً وحديثاً، إذ تكشف لنا الرّواية ضمن تتابع أحداثها البؤس والفقر الذي يُعاني منه الأفارقة، حيث يُشير "الصّديق حاج أحمد" إلى بعض الواجبات البسيطة التي يتناولها سكان إفريقيا جنوب الصّحراء خاصّة النّيجر ومالي كوجبة "هُرا" وهي عبارة عن «كسرة من مسحوق الذّرة المخلّط مع الحليب» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 65) أو شراب "دغنو" «وهو شراب يُصنع من الذّرة والحليب مع الكليلة التي تُخمّر وتُجمّد من اللّبن» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 81)، والمجتمع الإفريقي والصّحراوي بشكل عام يتميّز عن غيره من البيئات بتقديسه لقاعدة الاجتماع حول الأكل، وهي خاصّية إيجابية لها ما يُعضّدها في الثّقافة الإسلامية، ومن الاجتماعات المذكورة في الرّواية الاجتماع لشرب الشّاي الذي يُعتبر لازماً من لوازم الجلسات الصّحراوية ويختلف تماماً عن الشّاي الذي يُصنع في التّل من حيث «زمان الشّرب ومكانه ولوازم تحضيره، إضافة إلى الحركات الجسدية

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

والمواقف والكلمات» (السبتي، لخصاصي 1999،ص 44)، وبالتّالي فإنّ سكّان الصّحراء عموماً لا يُجلسون من هبّ ودبّ على صينية الشّاي،علىاعتبار أنّ هذا الأخير له من القدسية ما له في حياتهم اليومية، وأنّ المكلّف بتحضيره قد اكتسب تشريفاً وفي نفس الوقت تكليفاً، يُحتّم عليه هذا الإختيار أن يكون على قدر المسؤولية الملقاة على عاتقه.

نجد في الصّفحة 38-39 من الرّواية إشارة إلى الدّيكور الذي لابدّ أن يكون مُهيّأً أثناء عملية تحضير الشّاي، حيث يذكر "مامادو" ذلك بقوله: «أرى الأخير قد أتمّ رشّ الماء على أرضية المجلس وبالكاد يُنهي بسط الحصيرة السعفية على الأرض وضع صينية الشّاي النّحاسية المستديرة وسط المفروش، حيث صُفّت في تلك الأخيرة فناجيل الشّاي الزّجاجية الشّفافة المقلوبة يرقد بينها كوب كبير مقلوب هو الآخر مثلها، رُكن إلى جنبها إبريق حديدي أزرق صدئ لطبخ الشاي» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 38، 39)، إنّ وضع هذه الأدوات والمستلزمات على طريقة معيّنة ذكرها "مامادو" ليست على وجه العبث، بل هي على سبيل الوجوب، إذ تعارف الصّحراويون جيلاً بعد جيل على هذه الطّريقة واعتبروا أيّ مخالفة لها، يعني ذلك أنّ صانع الشّاي ليس على علم أو دراية بأحكام الشّاي الصّحراوي، أمّا عن خطوات تحضيره فقد جاء تفصيلها في الصّفحة 41 و42 من الرّواية، حيث يذكر "مامادو" ذلك بقوله: «في الفترة ما بين مجيئي وقبل التحاق الرّفاق يكون الرّفيق إدريسو قد وضع ورق الشّاي مع الماء في الإبريق وحطّه على جمر الكانون ليتولّى أمر إعداده بكلّ احترافية» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 41، 42)، أمّا عن المراحل الأخيرة في التّحضير فهي كالآتي: «أعاد تغطية البرّاد بكلّ أناة رفعه إزار كتفه أماله ميلاً خفيفاً خرج الشّاي مبروما من خرطومه أقرب ما أشبّه مشهد هذه اللّوحة البديعية كخروج ماء المطر الغزير ونزوله من أعلى سطوح تلك البنايات الإسمنتية والعمارات» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 42).

قد تبدو هذه المراحل عادية وبديهية للكثير، ولكن في حقيقة الأمر أنّها مراحل وخطوات دقيقة وموزونة إن فقدت أو لم يتم مراعاتها، فالشّاي سيكون ناقصاً لا محالة، وكلّما زدنا توغّلاً في الصّحراء إلاّ والشّاي يحظى بقُدُسية أكبر، حتى ذهب بعضهم للقول أنّ الشّاي الصّحراوي تُلخّصه جيمات ثلاثة تُعتبر في حكم الفرائض، الجيم الأولى: وهي الجماعة، وهم الأفراد الأكثر من ثلاثة، والجيم الثّانية: وهي الجمر الفحم الذي يُطهى عليه الشّاي، أمّا الجيم الثّالثة: وهي الجرُّ أي المدّة الزّمنية التي يستغرقها إعداد الشّاي،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وغالباً ما تكون فوق السّاعة والنّصف، بحيث يتداول المجتمعون عدّة مواضيع تخصّ المجتمع وتُعنَى بالثّقافة والتّرحاب بالضّيوف والجلوس معهم لمدّة زمنية طويلة.

4- الإغراق في تقديس الأساطير والمرويات الغرائبية:

هي من الممارسات السّائدة في المجتمع الإفريقي، والحديث في هذه الجزئية يُحيل على أعمال "كلود ليفي ستراوس" Cloud Lévi-Strawss الذي «يحتلّ مفهوم الأسطورة عنده مركز الصّدارة أين حدّد علاقتها بالعلم والتّاريخ والموسيقى وحتّى اللّغة» (كلود ليفي ستراوس، 1986، ص 05)، فمن النّاحية الأنثروبولوجية الثّقافية فالشّخصية الإفريقية تعتمد على هذه المرويات بشكل كبير في توجيه الأفكار من ذلك قول "الزّيواني" على لسان "مامادو" «تقول الأسطورة التي روتها لي أمّي عن أبي بوريما أنّ جدّي غندا عندما هاجر من قرى مدينة دوصو قبل سنين بعيدة وجاء إلى نيامي بعد قحط هناك استقرّ مع غيره من المهاجرين على ضفّة النّهر حيث مارسوا الصّيد في تلك الأيّام الخوالي حتّى جاءهم عام كبيس كاد النّهر أن يجفّ معه ما أضعف الصّيد واشتكى فيه الصّيادون لدوكو فرعون»(الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 58، 59)، فهذه الأساطير لا يغفل عنها رجل الصّحراء فهو يُعيرها اهتماماً بالغاً وإن هو أهملها أو تغافل عنها فعملاً بالمعتقد السّائد عند الإفريقيين فإنّ ذلك مؤذن بحدوث الشّؤم والشّقاوة في الحياة.

5- استعمال التّمائم والحروز:

هو نموذج آخر من النّماذج والممارسات في المجتمع الإفريقي، حيث تنتشر في أوساطهم استعمال التّمائم والحروز ولو كانت مكتوبة بغير القرآن، وبالرّجوع إلى الرّواية نرصد هذا المعتقدفي اللّحظة التي سلّمت أم "مامادو" لولدها تميمة Gونكي وقالت: «اسمع يا ولدي إن واجهتك ظروف صعبة كانقطاع السّبل ولا مُغيث إلّا الله كأن ترى الموت مثلاً أو ما يُشبه هذه الظّروف، فقد ترك والدك رحمه الله تميمة Gونكي، إنّ بها عقاقير مسحوقة من رؤوس النّسور والتّماسيح»(الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 102)؛ إنّ هذه النّماذج وغيرها كثير تعكس مساحة كبيرة من تفكير النّاس وتحليل إلى مراحل بدائية من حياة الإنسان، حيث يلجأ الكثير من النّاس في حال وقوع أزمات وتعقيدات وضغوطات نفسية في الحياة اليومية إلى استعمال أنواع من التّمائم لحلّ مشكلاتهم الأسرية والمهنية وتوظيف الأحراز التي تعينهم في عمليات البيع والشّراء أو النّجاح في الامتحانات وغير ذلك من المبتغيات.

6- التّعدّد الإثني:

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

هو ثالث خطر يُهدّد أمن واستقرار الدّول الإفريقية، إذ تُعدّ الإثنية شكلاً من أشكال التّعصّب الدّيني والقومي لدى الفرد الذي يتشبّث بإثنيّة ويُوقن بأنّها الحقّ والصّواب وأنّ ما خالفها هو الخطأ والباطل، وقد ابتليت الشّعوب الإفريقية بالتّنوّع الإثني وكثيراً ما كانت هذه الأخيرة «أرضية لتوتّرات بل صراعات سواءً بينها وبين الحكومات أو فيما بين إثنيات مختلفة»(باه، 2018، ص89)، وقد أشار الصّديق حاج أحمد في روايته إلى أنّ من أهمّ مُسبّبات هجرة الأفارقة وحُلمهم بالفردوس الأوروبي التّعدّد الإثني الذي انجرّ عنه تمزّق الوحدة الوطنية وشُيوع التّعصّب المفرط، وهذا ما يتّضح جليّاً من خلال شكوى "مامادو" لرفيقه "إدريسو" أثناء الرّحلة بقوله: «أصلنا الإثني يُحاكي آهاتنا في كلّ مكان» (الصّديق حاج أحمد، 2015، ص 99)، وبطبيعة الحال فالتّاريخ شاهد على الحروب التي نشبت بسبب التّعدّد الإثني والعرقي ومن مُثُل ذلك «حرب بيافرا في نيجيريا من 1967 إلى 1980 والتي ظهر فيها الطّابع الإثني وبخاصّة إثنية إيبو غالبية سكّان منطقة بيافرا، ضف إلى ذلك الحرب بين العشيرتين التوتسي والهوتو في رواندا عام 1994 وهي من أبشع الحروب الإثنية في إفريقيا راح ضحيّتها مئات الآلاف من النّاس» (باه، 2018، ص95).

خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية نخلص للقول أنّ تجربة "الصّديق حاج أحمد" من خلال رواية "كامارا د -رفيق الحيف والضّياع" عُدّت تجربة رائدة ومميّزة في الرّواية الجزائرية المعاصرة، نظراً لكونها اقتحمت أجواءً جديدة تمثّلت في الصّحراء الكبرى وما جاورها من بلاد الزّنوج والأفارقة، قدّم الرّوائي من خلالها للقارئ خلفية عن تاريخ البلدان الإفريقية مؤثّثاً نصّه بثقافتها الشّعبية من أساطير وخرافات ومعتقدات دينية، وقفنا على كلّ ذلك من خلال قراءة لسانية أنثروبولوجية.

يُمكن القول أنّه ورغم صعوبة تأليف رواية من خلال الاشتغال على الفضاء الصّحراوي نظراً لقلّة المعالم التي تُؤثّث للنّص، إلاّ أنّ الصّديق حاج أحمد" بإبداعيته المتميّزة استطاع تفجير الطّاقات الخيالية في عوالم الصّحراء الغامضة، وجعل لهذا الفضاء المدهش حضوراً قويّاً في رواية كامارادْ الأمر الذي دفع بأحد النّقاد الأكاديميين وهو "محمد الأمين بحري" إلى تصنيف الرّواية ضمن خانة السّرد المعرفي.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

قائمة المراجع:

1- سعد يوسف محمود أبو عزيز، موسوعة الأخلاق الإسلامية للمسلمين عامّة وللخطباء خاصّة، المكتبة التّوفيقية، القاهرة، مصر، د. ط، 2012، ج1.

2- الصّديق حاج أحمد، رواية كاماراد -رفيق الحيف والضّياع، دار فضاءات، دار ميم، 2015.

3- عبد الأحد السّبتي، عبد الرحمن لخصاصي، من الشاي إلى الآتاي -العادة والتّاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرّباط، المغرب، ط1، 1999.

4- عيسى الشّماس، مدخل إلى علم الإنسان الأنثروبولوجيا -دراسة، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريّة، 2004.

5- كلود ليفي ستراوس، الأسطورة والمعنى، تر: شاكر عبد الحميد، دار الشؤون الثّقافية العامّة، بغداد، العراق، ط1، 1986.

6- كلود ليفي ستراوس، العرق والتّاريخ، تر: سليم حداد، مطبعة علي مولى، المؤسسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، د. ط، 1952.

7- لوسيان غولدمان، مقدّمات في سوسيولوجية الرّواية، تر: بدر الدّين عرودكي، دار الحوار اللّاذقية، سوريا، ط1، 1993.

8- مجموعة أبحاث، مالي عودة الإستعمار القديم، منتدى العلاقات العربية والدّولية، كتارا، قطر، ط1، 2014.

المجلات:

1- أشرف صالح محمد، الإستعمار الأوروبي وجريمة التّجارة بالإنسان الإفريقي، مجلّة قراءات إفريقية، محرّم ربيع الأوّل، 1435هـ، يناير مارس 2014، ع 19، ص 73، نقلا عن كاثرين جورج، الغرب المتمدّن ينظر إلى إفريقيا، تر: محمد عصفور، الكويت، 1980.

2- عبد الحميد هيمة، المأساة الوطنية في الرّواية الجزائرية — قراءة في نماذج من الرّواية الجزائرية الجديدة، مجلّة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع 29، فيفري 2013، ص 244)

3- عبد الهادي الحلحولي، المقدّس بنيته ووظائفه – قراءة في كتاب الوظائف الاجتماعية للمقدّس، مجلة مؤمنون بلا حدود، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية،الرّباط، المغرب، ع: تراث الأنثروبولوجيا الفرنسية في تقدير الممارسةالفكرية لمرسال موس، 01 فبراير 2016.

4- عبده باه، الإثنية وإدارة التّنوّع الإثني في إفريقيا، مجلّة قراءات إفريقيا، المنتدى الإسلامي، ع 36، رجب 1439هـ، أبريل 2018.

المواقع الإلكترونية:

1- alwatan.com/details/0494
2- http://kadik.hebergratuit.net/wp/?p=666&i=1